

ما بعد النزعة التجريبية عند كواين

طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة

إبراهيم مشروح
باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة



استهلال:

تنطلق فلسفة العلم عند كواين من مبدأ أساسي يقضي بعدم الفصل بين العلم والفلسفة، وقد خالف فيه كواين مذهب الوضعية التجريبية المنطقية؛ ويفيد هذا المبدأ أن امتناع الفصل بين العلم والفلسفة، إنما يتأتى من الاعتراض على مصادرة غير مُسلمة مفادها ادّعاء الوضعيين المناطقة أن الفلسفة خطاب حول العلم، وبالتالي فإن وظيفتها إنما يجب أن تنحصر في تطهير العلم من شوائب الميتافيزيقا، والعناية بتدقيق لغته، وليس يبعد هذا عما سبق أن بيّنه كارناب بخصوص وظيفة الفلسفة، حيث قال: "ينبغي أن نستعيز عن الفلسفة بمنطق العلم؛ أي أن نستعيز عنها بالتحليل المنطقي لمفاهيم وتصورات العلوم، وذلك لأن منطق العلم ليس شيئاً آخر سوى التركيب المنطقي للغة العلم...؛ ومن هذا المنظور، فإن القضايا الميتافيزيقية عبارة عن أشباه قضايا يثبت التحليل المنطقي، إما أنها عبارات فارغة من المعنى، وإما أنها عبارات تخرق قواعد النحو. وحدها قضايا منطق العلم تحظى، من بين كل ما يُعبر عنه بالمشكلات الفلسفية، بكونها ذات معنى"¹.

ومن المعلوم أن كواين، قد استلهم أسس فلسفة العلم من بحوثه في المنطق ومن عنايته الشديدة، على الخصوص، بالشروط الواقعية أو الموضوعية لتحقق النظرية العلمية²، كما اهتم بالقيمة النظرية للمعرفة العلمية في علاقتها بالصدق؛ ولهذا لم تكن الفلسفة - في نظره - مجرد نشاط أو فاعلية نظرية تقبع فيها الفلسفة خارج العلم؛ فالفلسفة لم تعد تمثل، بالنسبة إليه، خطاباً حول العلم.

¹ - Carnap, **Logical syntax of language**. London: Routledge & Kegan Paul, 1937. Forward.p.8.

² - لقد عالجتنا هذه المسألة في كتابنا: كواين: ما بعد النزعة التجريبية (الفلسفة-الأنطولوجيا-الترجمة)، كما وقفنا في مؤلفه **مناهج المنطق الذي نقلناه إلى اللغة العربية** على اهتمامه بفلسفة العلم التي بلور بخصوصها أطروحتة الشهيرة حول امتناع **تحديد النظرية العلمية**، وقد ترجمنا الطبعة الرابعة والأخيرة لهذا الكتاب؛ يراجع:

Quine, **Methods of Logic**. Fourth edition

استشكال العلاقة بين الفلسفة والعلم

لم يعد ثمة أي فرق قد نقيمه بين الفلسفة والعلم، وذلك بمجرد أن أجهز كواين على الثنائية التي صاغها كارناب، وهي ثنائية تفرّق بين الأسئلة الخارجية والأسئلة الداخلية: يرى كارناب، أن العالم هو الذي يستعمل المفاهيم العلمية من قبيل: "الإلكترون" و"الذرة" و"الطاقة"، بينما يكتفي الفيلسوف بالتكلم عن هذه المفاهيم؛ أي أن العالم يشغل ويمارس المعرفة، بينما يكتفي الفيلسوف بتحليل لغتها، لقد تساءل نيلز بوهر، حين كان منشغلاً بالشروط التي تنطبق فيها المفاهيم الفيزيائية أو مفاهيم العلم الطبيعي عموماً على الوقائع، عمّا إذا كانت الرسوم أو الأوصاف التقليدية ما تزال تحتفظ بمعناها؛ فاكشف لتوّه أن ذلك يقتضي الإقرار بأصل مستديم أو بمبدأ يقتضي وجود الصفات أو الخصائص، حيث يؤثر قياس كلّ خاصية في قياس الخاصية الأخرى وفق المنظور التكاملي؛ وهنا لا نتصور أن نيلز بوهر قد غادر تربة العلم لكي يعانق الميتافيزيقا، بل ظلّ في صميم العلم، فلم يخرج سؤاله الفلسفي من العلم ولا منظوره العلمي من الفلسفة، وهنا امتنع الفصل بين التفلسف والنظر العلمي؛ وبالمقابل كان "اينشتاين" يبحث في الوجود بمفاهيم فيزيائية، فكانت أنطولوجيته العلمية حول الأبعاد غير عارية من الخلفية الفلسفية، فانتصب الدليل على بطلان ثنائية الأسئلة الخارجية والأسئلة الداخلية.

إن مسألة فصل العلم عن الفلسفة مسألة موروثية عن الفكر الوضعي الذي اختزل الفلسفة في الميتافيزيقا، ظلنا منه أن العلم واقعي وموضوعي وحقائقه ضرورية وحمية، في حين أن قضايا الفلسفة "خالية من المعنى"؛ لذلك لم يعترف الوضعيون المناطقة سوى بالمضمون التجريبي وبالصورة المنطقية.

تأخذ المسألة صورتين: تتمثل أو لاهما في المفاهيم، بينما تتجسد ثانيتهما في الوقائع؛ فكيف نتعرف على الموضوعات أو الأشياء التي تدلّ عليها ألفاظنا أو مفاهيمنا؟

لا بد من أن نفترض وجود خلفية نظرية تتيح لنا أن نتحدث من خلالها عن الموجود³؛ فمن الملاحظ، أن كلاً من "اينشتاين و بوهر، في المثال السابق، يتناول أو يعالج نفس الواقع الاختباري بعينه، غير أن كلّ واحد منهما يتكلم بألفاظ ومفاهيم أو تصورات نظرية تختلف عن ألفاظ ومفاهيم أو تصورات الآخر.

لقد أثبتت فلسفة العلم أن النظريات العلمية مجرد مقاربات للواقع، حتى مال البعض إلى القول بأنها مجرد مواضع، وذلك بصرف النظر عن كون المواضع لا تسود إلا حيثما يكون ثمة نقص في الوقائع⁴.

³ - Largeault, j., (1980), **Quine, Questions de mots, Questions de faits.** op.cit.p.17note 14.

⁴ - يرجع الفضل إلى هنري بوانكاريه Henri Poincaré الرياضي والفيزيائي والفيلسوف الفرنسي في بلورة النزعة المواضعانية Conventionalisme. وتكمن أطروحته الفلسفية الأساسية في كون الفلسفة لا تمثل مجالاً معرفياً مستقلاً بالمعنى الذي يفيد أن استقلاليتها المزعومة عن باقي العلوم ليست قابلة للتبرير؛ فقد تبلور انفصال الفلسفة عن العلوم عبر التاريخ وفي ظروف معينة، وأما في نظر بوانكاريه، فإن التفلسف يعني تطوير المظهر الخلاق الذي يتأمل فيه كل مجال معرفي مخصوص نشاطه الخاص، وينظر في أعماله المرتبطة باللغة أو غير المرتبطة بها. إن الفلسفة لا تكتشف شيئاً ولكنها تدع شيئاً،

وتجدر الإشارة إلى أن فلسفة العلم عند كواين، تقوم، فضلا عن دعواه الشهيرة القاضية بامتناع تقرير النظرية العلمية للواقع الموضوعي *under-determinacy of scientific theory*، على أطروحات أخرى تتداخل معها وتستند إليها، والواقع أن فلسفته في العلم كانت وراء دعاوى من قبيل قوله بالنسبية الأنطولوجية، ودعواه القاضية بامتناع تحدد الترجمة؛ وهي تشكل برمتها أنوية فكرية لنزعة ما بعد-التجريبية.⁵

غالبا ما يتمّ التغاضي عن مساهمات فلسفة العلم الكواينية ودورها في فكره؛ حيث يتمّ تغليب فلسفة اللغة والمنطق على فلسفة العلم، والواقع أن فلسفة اللغة عند كواين تتداخل غاية التداخل مع فلسفته في العلم، فأطروحاته الفكرية يشدُّ بعضها برقاب بعض، حتى لا نكاد نظفر بأطروحة تهيمن على باقي الأطروحات الأخرى.

الأفق ما بعد التجريبي لفكر كواين

من المعلوم أن كواين يتصف بنزعة الطبيعية والسلوكية، فقد ظلّ يقرن تنظيراته الفلسفية بالوقائع المادية، ثمّ ما لبث أن أثبت، مستندا في ذلك إلى دعواه القاضية بامتناع تمحيص الإحالة *inscrutability of reference*، أن هذه الوقائع غير قابلة للتمحيص، ليقرّ للتوّ، أن كل معرفة يجب أن ترتبط، مع ذلك، بالواقع؛ ولعل كواين، يمثل بهذا الموقف الملتبس، ما يمكن أن نصفه بما بعد النزعة التجريبية *Post-empiricism*، حين قوّض ثوابت النزعة التجريبية وأثبت "امتناع التفريق بين الصورة المفهومية والمضمون التجريبي *scheme and content*"، وحين هاجم الثنائية الشهيرة؛ أي ثنائية القضايا التحليلية والقضايا التركيبية؛ وتلك هي حصيلة إجهازه على النزعة التجريبية المنطقية في مقاله الشهيرة "معتقدا النزعة التجريبية".⁶

ربّ قائل يقول إن موقف كواين ملتبس، فهو يتشبّه تارة بالنزعة الطبيعية أو الفيزيائية *Physicalism*؛ حيث يسود مبدأ الفيزياء فلسفته في العلم، ويرتهن تارة أخرى بمصادر لا تأخذ بالنزعة التجريبية خصوصا حين يقول بامتناع تقرير النظرية العلمية، وبامتناع تمحيص الإحالة... إلخ؛ وإن كنا لا نرى في ذلك أيّ التباس لا اعتبارين:

- أولهما أن هذه النزعة الطبيعية لا تدعي إمكان التحقق المباشر من الواقع؛ فالتحقق شمولي لأن النظرية العلمية لا تقابل الواحد بالواحد الوقائع الخارجية، فحين يكتشف العالم عدم تطابق معطى من معطيات نظريته

إنها تدع - كما يرى بوانكاريه- الإطار التأملي لحياتنا، إنها "تأمل تأملنا، بالمعنى الواسع، لهذا الكون" فحين نكتشف القوانين العلمية ثم نتأملها، فإننا نكتشف حينها أن الطبيعة لم تفرضها علينا، بيد أننا إذا فرضناها على الطبيعة، فذلك لأنها تسمح لنا بذلك؛ وأما إذا ما أبدت لنا مقاومة، فإننا سنبحث في عُدتنا على صورة أخرى تكون مقبولة من طرفها.

⁵ - Norris Christopher; "The blank and the die: Some dilemmas of post-empiricism", International Journal of Philosophical Studies 2006, vol. 14, n2, pp. 159-189.

⁶ - Quine, "Two Dogmas of Empiricism" in *From a Logical Point of View*, 1953 Cambridge Harvard.

العلمية مع الواقع، نجده يعمد إلى مراجعة إطاره النظري برمته فلا يفحص فرضية علمية بعينها، بل يفحص الإطار النظري الذي ينطلق منه (وليس هاهنا مجال لبسط دعوى كواين-ديوهيم)؛

- وثانيهما، أن هناك اختلافات وتنوعات في النظريات العلمية، و مردُّ ذلك إلى اعتبارات أدائية وذرائعية، فقد تطابق نظريتان معا الواقع نفسهدون أن تتطابقا فيما بينهما؛ ومع ذلك، فقد ظل كواين يحرص بقوة على، الواقعية، فلا معنى للتنظيرات العلمية التي تلغي وجود الوقائع الخارجية، ولا معنى للاختلافات بين النظريات العلمية ما لم تقم على أساس اختلاف واقعي.

الفلسفة- العلم بين التصور التحليلي والقاري

يختلف "كواين" عن فلاسفة العلم أمثال "بوبر" k.Popper و"كيون T.Khun" و"فايربانند P.Fayerbend و"لاكاتوس" Imre Lackatos، وغيرهم بكونه لا يعتبر فلسفة العلم مجرد خطاب حول العلم وليست، بالتالي، مجرد ممارسة علمية، نجده يصرح في ردّه على "سمارت": "يقتضي الحلُّ المثالي أن نكفَّ عن ادعاء وجود فلسفة أولى تكون، بصورة ما، سابقة عن العلم؛ فالمعرفة العلمية عندي هي العلم وهو ينطبق على ذاته"⁷.

تقوم هذه الأطروحة على فكرة نرى أنها تخالف منظور الفلسفة القارية continental philosophy خصوصا مع الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر Martin Heidegger للعلم، ويتحدّد موقفه في أطروحته التي تثير الدهشة الفلسفية: "العلم لا يفكر"؛ ومن هذا المنطلق الكوايني القاضي بأن العلم يفكر حينما ينطبق على ذاته، قد نسوّغ لأنفسنا أن نسجّل اعتراضنا على الموقف الخطير لهايدغر من العلم والفكر؛ فهو يرى في أطروحته الشهيرة أن العلم لا يفكر، يقول بهذا الصدد:

"يعود أمرُ هذا الوضع إلى كون العلم لا يفكر، فهو لا يفكر لأن طريقته ووسائله المساعدة توجد على نحو لا يجعله يفكر؛ وأعني بالتفكير التفكير على طريقة المفكرين، فأن يكون العلم غير قادر على التفكير، ليس ذلك بعيب ينتقص من قيمته، بل يعدُّ مزيّة تُحسب له، إذ وحدها هذه المزيّة تكفل له أن يقتحم مجالات الموضوعات التي تتلاءم مع طرائقه في البحث، و تسمح له، وحدها، بالإقامة في صميم هذه الموضوعات؛ 'العلم لا يفكر: عبارة تصدم فهمنا المعهود للعلم، فلنبق على الطّابع الصّادم لهذه العبارة، ولننظر في العبارة التي تأتي بعدها، ومفادها أنه كما أن الإنسان يحتاج إلى التفكير كلّما نوى القيام أو الامتناع عن فعل ما، فكذلك العلم لا يستطيع شيئا من دون تفكير؛ غير أننا نجد أن العلاقة بين العلم والفكر لا تصبح خصبة وأصيلة إلا حين تغدو الهوة التي

⁷ - << Epistemology, for me, is only science self applied >>. See Quine ;(1969), <<Reply to Smart>> in **Words and Objections**, D.Davidson and JaakoHintikkaed, p.292.

تقع بين العلم والفكر بادية للعيان، وحين يظهر لنا أننا لا نستطيع أن نمذّ فوقها أيّ جسر؛ فليس ثمة جسر يقود العلوم إلى الفكر، ليس ثمة سوى القفز، ولن نجد فقط ضفّة أخرى سيحملنا إليها القفز، بل سنجد مجالاً جديداً تمام الجِدّة؛ ولن نجد، بالتالي، البتة أن ما سيفتحه لنا القفز سيكون قابلاً للبرهنة إذا كنا نفهم من البرهنة: اشتقاق قضايا تتعلق بمسألة معطاة انطلاقاً أوليات ملائمة باعتماد سلاسل برهانية"⁸.

لا يفرق هايدغر بين العلم والفلسفة، بل يفرق بين العلم والفكر، والفكر ليس هو التعقل وإنما هو ابتكار للفهم أو اجترار طريق غير مسبوق وغير مألوف للفهم. لكننا نرى أن الهوة التي متى قفزنا فوقها نحصل على الانفتاح على مجال جديد ليست سوى لحظة العلم وهو يتأمل ذاته.

لقد رفض كواين الفلسفة الأولى ليرفض معها تصورا معيناً للميتافيزيقا، على الأقل كما جاء مع أرسطو الذي جعل هذه الفلسفة الأولى أشرف من كلّ نظر، وبالتالي من كلّ تفكير لكونها تتولى العلم بالوجود. يعتبر كواين أن العلم حين ينطبق على ذاته، لا يكون ثمة سوى فكر واحد، وبالتالي فلسفة واحدة بالمعنى الذي يفيد أن العلم يفكر من تلقاء ذاته وليست هناك خلفية فلسفية سابقة عليه، وههنا يقع التعارض القوي بين كواين وهايدغر؛ حيث يرى الأول أن الميتافيزيقا لا تنفصل عن العلم حين ينطبق هذا العلم على ذاته، فليس هناك قول يقع خارج العلم. وأما هايدغر، فيغادر تربة الموجود نحو الوجود المنسي، ليضع الميتافيزيقا في طرف آخر لا تنتبذ من العلم مكاناً قصياً، فكلاهما ينتميان إلى تاريخ طويل من نسيان الوجود لصالح إرادة قوة تجثم على الموجود، ومن هنا ينفصل العلم عن الفكر لكونه يغرق في الموجود وينسى الوجود؛ ولهذا يعتبر هايدغر أن الفن، وليس العلم، يكشف وحده عن الهوة العميقة الفاصلة بين الوجود والموجود.

البعد الاجتماعي والبعد الفلسفي للعلم

تقضي دعوى البعد الاجتماعي للعلم أن العلم "مؤسسة ونتاج اجتماعي"⁹، وهي دعوى لا نعدم أن نجد لها أساساً في فكر كواين خصوصاً في نزعته السلوكية والطبيعانية، ولما كان بسطُ هذه الدعوى لا يقتضيه المقام، فلنعد أدرجنا إلى موقف كواين من الإبستمولوجيا في شموليتها المعرفية؛ حيث يحددها بكونها هي العلم، وهو ينطبق على نفسه، فحين نعتبر أن العلم ينطبق على نفسه، فكأننا نمائل بينه وباقي المؤسسات الاجتماعية بما فيها اللغة، ذلك أن "العلم بناء اجتماعي مرتبط وخاضع لمصالح اقتصادية وسياسية متعددة"¹⁰.

⁸ - Heidegger, *Essais et conférences*, "Que veut dire penser ?", TEL Gallimard, pp.157-158

⁹ - Berthelot J-M, *L'emprise du vrai, connaissance scientifique et modernité*, PUF, coll. «sociologie d'aujourd'hui», Paris, 2008.

¹⁰ - Ibidem.

وأما عن البعد الفلسفي، فإن رؤية "كواين" تختلف عن التصورات الأفلاطونية الفيثاغورية القائلة بوجود أشباح للوقائع في عالم المثل، فليس قول كواين بأن مقاربتنا للوقائع مقارنة نسبية كفيلا بأن يجعلنا نقول بأنه ما دامت المثالية تضايقتنا، فانبذناها بـ "البنوية" طالما أن النزوع إلى المثالية يبدأ بمجرد أن نعتبر أن القضايا الخالية من الوقائع قضايا دقيقة؛ فالعلم لا ينظر في ذاته إلا من منظوره، ولذلك رفض "كواين" الفلسفة الأولى وجعل العلم بضعة من الفلسفة، ورأى أن فلسفة العلم إن هي إلا ممارسة علمية من مستوى آخر غير مباشر؛ وبهذا يكون قد نزع عن فلسفة العلم كل افتراض يعطي للفلسفة وجودا سابقا عن العلم، ويجعلها تؤطره كيفما كانت هذه الفلسفة وضعية أو بنوية أو مواضعانية أو ظاهرانية.. إلخ.

يرى سمارت أن كواين قد تخلى بهذه الدعوى عن موقف كارناب القاضي بالتفريق بين الفلسفة والعلم، وذلك منذ أن أبطل التفريق بين التحليل والتركيب، وألغى ثنائية الأسئلة الداخلية والخارجية، ولم يفرق بين المبادئ العامة لهذه المقولة والمبادئ التي تقوم عليها بنية اللغة وأطرها¹¹، لقد أجهز كواين في مقالته الشهيرة "معتقدا النزعة التجريبية" على البرنامج الوضعي المنطقي الذي فرق بين الميتافيزيقا والعلم النظري.

لاشك أن الإشكالات الدلالية في العلم هي التي تضفي على النظريات العلمية طابع النسبية، فقد يشتغل العلماء على ظاهرة واحدة، وتكون نظرياتهم متكافئة من الناحية التجريبية، بيد أنها لا تكون متكافئة من الناحية النظرية، وههنا نجد كواين يماثل بين الطريقة التي يسلم فيها العالم، على سبيل المثال، بوجود الكترونات ونوترونات بالطريقة التي نسلم فيها في تفكيرنا بالحس المشترك الطبيعي، وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه طبيعانية المعرفة عند كواين.

لقد بيّنا أن فلسفة العلم عند كواين، تختص بكونها لا تقيم فارقا بين العلم والفلسفة، فالفلسفة والعلم لا يتكاملان فحسب، بل إنهما يتداخلان أو يتوالجان، وهذا الموقف مناقض لما يزعّمه "كارناب" باعتباره الفلسفة نشاطا نظريا فوقيا¹². فكيف دافع "كواين" عن هذا الموقف؟ وما هي حججه التي دحض بها موقف "كارناب" و أشياعه؟

اللغة والانطولوجيا والنظرية

يظهر أن "كواين" يركز على اللغة باعتبارها تحمل مضمونا نظريا وانطولوجيا في آن واحد؛ فالنظرية العلمية لا تستعيد الواقع، ولكنها تنظمه في صورة مفهومية:

¹¹- Smart; (1969), <<Quine's philosophy of science>>, in **Words and objections**, op, cit.p.4.

¹²- meta-theoretical activity.

"هب أن الفيزياء انتقلت إلى وضع تضاف فيه النظرية الجزئية¹³ إلى نظرية الحقل أو المجال¹⁴، ولنسم ناج النظرية الجزئية وناح نظرية الحقل، لنفرض أن مفهوم الحقول لم يرد في ناج ولم يرد مفهوم الجزئيات في ناح (...). لنتمعن الآن الموقف الذي يكون عليه كلُّ من الشخص الذي يعتقد ناج والشخص الذي يعتقد ناح، عندما يتناقشان بخصوص أهمية المفهومين (أي الجزئيات والحقول) في النظريتين؛ فلو طرحنا المسألة على هذا النحو، فسيظهر أنهما سيتكلمان عن النظريتين ناج وناح معاً، ولو ناقشا معاً ما إذا كانت الحقول أو الجزئيات موجودة، فإنهما سيستعملان إما ناح أو ناج.

ومع ذلك، فستبرز مشكلة أخرى، لأن معتنق إحدى النظريتين قد يدّعي أن النظرية الأخرى تتضمن قضايا وجودية كاذبة، قضايا صادقة مسورة تسويراً كلياً مع أنها فارغة، وسيكون معتنقا النظريتين معاً على صواب، إذن، عندما يلجآن إلى الاستعمال اللغوي الفوقي من أجل المناقشة بخصوص؛ أيّ القضايا من ناح وناج تلزم عن قضايا أخرى؛ وعلى كل حال، فسيعترفان كلاهما بوجود القضايا وهذا وحده يمثل، بالنسبة إلى كليهما، أساساً مشتركاً.¹⁵

لا يمكن أن نفصل في المناقشة التي تدور بين معتنقي ناج وناح بين الخلفية النظرية وما تلزم به هذه النظرية على الصعيد الأنطولوجي، وبالتالي، فلن يكون خطاب كل واحد من المتجادلين خطاباً علمياً لا غير، ولا خطاباً فلسفياً لا غير، بل سيكون خطاباً علمياً وفلسفياً معاً.

وهكذا، يقوم هذا المثال لدليلاً على ما أسلفنا بصدد امتناع التفريق بين العلم والخلفية الفلسفية، كما يقوم لدليلاً على كون العلم يفكر؛ ففي فلسفة العلم عند كواين نجد أنفسنا فعلاً حيال العلم، وهو ينطبق على نفسه.

لقد سبق أن أومأنا إلى التداخل والتفاعل الحاصل بين دعاوى أو أطروحات كواين الدلالية منها والأنطولوجية، وها نحن نقف على دليل يفيد أن اللغوية الأنطولوجية متباينة لدى المتجادلين لكنهما يتواصلان، مع ذلك، من خلال تفهم الواحد منهما للالتزام الأنطولوجي لخصمه، (يقْتَضِي الأمر استحضار دعوى النسبية الأنطولوجية (Ontological relativity)).

وحدة العلم والفلسفة

لقد رفض كواين، في كتابه الكلمة والشيء (1960)، رفضاً قاطعاً وصريحاً، التفريق بين العلم والفلسفة؛ حيث بيّن أنه ليس بين العلم والفلسفة فاصل صارم، ولا اختلاف بيّن، ومن الملاحظ أن هذا الموقف ينبني على

¹³ - particle theory.

¹⁴ - Field theory.

¹⁵ - Smart, J J, (1969), <<Quine's philosophy of science in >>: Hintikka and davidson ed. p. 4.

إبطال كواين التفريق بين التحليل والتركيب الذي اعتمده الوضعيون المناطقة في برنامجهم الرامي إلى شذب وتهذيب اللغة العلمية، فقد ظنَّ هؤلاء أن القضايا العلمية، إنّما تتشكل من المضمون التجريبي ومن الصورة المنطقية، وهي على ضربين: قضايا تحليلية وقضايا تركيبية (وهو تفريق موروث منذ أرسطو وإلى حين كرسه بعض مناطق القرون الوسطى، ويعود إلى كانط استثمار هذه القسمة في المعرفة).

لم يعد كواين يأخذ، إذن، بالفرق بين المضمون التجريبي والصورة المنطقية نظراً لامتناع تمحيص الإحالة، وهي أطروحة من أطروحاته الدلالية حول الإحالة، ولم يعد يؤمن بإمكان تحديد الفرق بين التحليلية والتركيبية، بناء على أطروحاته حول امتناع تحدّد المعنى (وقد أثبت في معرض بيانه لهذه الدعوى، أن كلّ من يسعى إلى تحديد مفاهيم حقل المعنى من قبيل المعنى والترادف synonymy والتحليلية analiticity والإعناء significance، يقع في الدّور circularity)، وهكذا، ستتأثر فلسفة العلم لدى كواين بأطروحاته الدلالية.

لم تعد المقولة العلمية، ولا الإطار، ولا النظرية، ولا الصورة المفهومية، وكلّ التصورات من هذا القبيل ذات كيانٍ؛ أي أنها لم تعد، في نظر كواين- وهو الذي لا يعترف بالذوات المجردة abstract entities - سوى مفاهيم ذات معنى واحد ووحيد، يكمن في كونها تقوم بتنظيم تجاربنا عن العالم.

ومن الملاحظ، أيضاً، أن أطروحة النسبية الأنطولوجية، وأطروحة امتناع تحديد الترجمة، تحضران بقوة لتعضيد فلسفة العلم لدى كواين؛ نذكر، بهذا الصدد، التصور الأنطولوجي النسبي الذي زكّى به كواين الحل الفلسفي-المنطقي لمسألة الوجود، حين اعتبر أن الوجود هو القيمة التي نسندها للمتغير، وأن الموجودات لا تحظى بالوجود إلا من خلال الخلفية النظرية التي تحدد القيم المسندة لهذه الموجودات، باعتبارها قيماً تتحدد بدورها داخل مجال النظرية وفي نطاقه ووفق منطقته.

وتبعاً لهذا، سيحلُّ كواين إشكال التفريق بين المضمون التجريبي والمعنى كما يتجلى في المفهوم أو في الصورة المنطقية سيقول كواين، بهذا الصدد، بمبدأ درجة الانزياح عن التجربة¹⁶؛ فالأعداد والمجموعات والفئات، وما إلى ذلك من المفاهيم الرياضية والرياضية الفوقية، إنّما تكون مجرد أمور مسلم بها (أي مسلم بوجودها) تماماً على النحو الذي نسلم فيه بوجود الحركة والمادة والكتلة في الفيزياء العيانية macrophysics أو الذوات غير المدركة بالعيان في الفيزياء المجهرية microphysics، بهذا الاعتبار، نجد أن نظرية المجموعات لم تكن في الأصل دراسة لأمر تعلق الطبيعة، بل كانت مجرد جزء من فيزياء الذوات غير المدرك non – perceptible entities.

¹⁶- principle of remoteness from the data of experience.

تمثل الكيفية التي يسلم فيها العالم بوجود الكثرونات ونوترونات الكيفية التي نسلم فيها بوجود الأشياء والأحجام في الحس المشترك، ولعلّ امتناع التحدّد هو الذي يفرض بنا إلى مثالية شبيهة بمثالية بيركلي الذي اختزل الوجود في الإدراك، بيد أنه، في الوقت الذي تكون فيه الأفكار، التي يضعها العالم، موضوعة بوعي ولأسباب معقولة ومعروفة، نجد أن موضوعات الحس المشترك الطبيعي تمتد إلينا في صور مفهومية منحدرّة من غابر الأزمان.

مكانة اللغة في فلسفة العلم

لا يقيم كواين أيّ فرق بين اللغة الاصطناعية واللغة الطبيعية؛ فكلاهما نتاج المجتمع الذي يعيش فيه أرقى أنواع التّديبات، فهما سيان في تمثيلهما للصورة المفهومية المناسبة لكلّ منهما¹⁷، وها هنا يختلف كواين، من جديد، مع التجريبيين المناطقة بكونه لا يبخص اللغة الطبيعية، ولا يعتبر اللغة العلمية متفوقة، لكونها اصطناعية، عن اللغة الطبيعية.

والآن، نواجه مع كواين تساؤلاً مشروعاً: إذا كان كواين لا يقيم هذا الفرق في مستويات اللغة، فكيف يتصور مكانة اللغة في فلسفته في العلم؟

يأخذ كواين في فلسفته بالعلم، سواء أكان هذا العلم رياضيات خالصة أو فيزياء، برؤية مستقلة عن الملاحظة والتجريب، ولا يتضح لنا بعد هذه الرؤية إلا باستحضار دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية، وتنطلق هذه الرؤية من اعتبار يفيد أن العلم عبارة عن نظريات تُقارب الوقائع سواء التجريبية منها أو الصورية، وليس المقصود بهذه "الوقائع" الوقائع المادية الخارجية التي نصادفها في العالم الخارجي كمعطيات من التجربة، بل المقصود هي الوقائع المبنية والمنظمة في صورة مفهومية، ولهذا فإن هذه الوقائع لا تُعطى ولا تُستوعب إلا في إطار ما النظرية العلمية، وهنا يمكن أن نحصل على موقف صريح وواضح من النزعة الاختبارية الساذجة الممتدة من إيرنست ماخ وأشياعه المتحمسين للنزعة التجريبية الكلاسيكية، كما نظفر بنقد للتجريبية المنطقية، وعلى رأسها حجة الوضعية المنطقية رودولف كارناب.

"إننا لنعتمد في وجود الإلكترونات لا لشيء إلا لأن النظرية التي محصناها تجريبياً هي التي أثبتت لنا وجود الإلكترونات، ولكننا لا نعتقد في وجود الفئات إلا لأن نظرية الأعداد الحقيقية تُعدّ مطلباً أساسياً في الفيزياء"¹⁸.

¹⁷- Ibid p.5.

¹⁸- Smart,J.J. C. 1969<<Quine and philosophy of science .op .p.4.

لقد كان "كواين" على حق حين بيّن أن الفلسفة ليست وحدها مستقلة عن الملاحظة والتجريب، بل نجد أنه حتى الرياضيات الخالصة تشاطرها هذا الوضع، وهكذا يجعل كواين الفيزياء نفسها في الوضع نفسه رغم ما تدعيه من اقترانها بالوقائع التجريبية، وللاستدلال على صحة هذا الموقف، يكفي أن نذكر بأن العلماء ينظرون في الواقع وينشئون أنساقاً نظرية متعددة تدعي كلّها الموضوعية، وتطابق جملة من الوقائع دون أن تتطابق فيما بينها رغم اشتراك موضوعها.

فبأي معنى نتحدث عن "ماصدقية العلم" - extensionality of science؟

يبدو أن "كواين" لم يفرط في نزعه الماصدقية رغم قوله بدعوى امتناع تحدّد النظرية العلمية، فهو يعتقد أن لغة الحسّ المشترك المتعلقة بالاعتقاد، يمكن إبدالها بالتكلم بالماصدق عن "المحددات العصبية للسلوك" الذي نعتبره اعتقاداً أو ميلاً.¹⁹

يضرب سمارت المثال التالي: يمكن أن نستبدل القضايا التي تتعلق بـ"بنية الجزيء" بالقضايا التي تتضمن "قابل للذوبان"، وتكمن الغاية من ذلك في استبدال التكلم عن البنية التحتية Underlying Structure بالتكلم عن الاستعدادات؛ غير أن "سمارت" يعترض على هذه الأطروحة معتبراً أن هذا لا يتماشى والكثير من الاستعدادات؛ هب أن العبارة "تتوفر الإلكترونات على شحنة" نقرأها:

$s^{\wedge}ص(إلكترون(س)بروتون(ص)) \subset (س)تجذب(ص)$.

تفيد أن كل إلكترون على استعداد لجذب البروتون، وبالتالي، فقد نصوغ هذه العبارة على نحو آخر، يفيد أنه كلما كانت (س) إلكترون و(ص) بروتون، فإن (س) تجذب (ص)؛ فقد جاء في مقالة "في بيان أسباب امتناع تحدد الترجمة" (كواين 1970)²⁰ أن النظرية العلمية تظل ممتعة التّحديد، حتى ولو أخذنا بكلّ الملاحظات الممكنة.

ويمكن أن تتغير النظرية حتى ولو ظلت كلّ الملاحظات الممكنة ثابتة؛ وهكذا، يمكن للنظريات الفيزيائية أن تكون غير متطابقة فيما بينهما، وتكون، مع ذلك، مطابقة لكلّ المعطيات الممكنة، حتى ولو أخذنا المطابقة بالمعنى الواسع. وبكلمة واحدة، يمكن أن تكون النظريات غير متطابقة منطقياً بيد أنها تكون متكافئة من الناحية التجريبية.²¹

¹⁹ - Ibid p. 12 .

²⁰ - Quine, (1970), < on the Reason for indeterminacy of translation > **Journal of Philosophy**, p.179.

²¹ - فضلنا، في البداية، استعمال دعوى "امتناع تقرير النظرية" الذي يفيد أن النظرية لا تستطيع أن تقرّ بشأن العبارة التي ينبغي أن تراجع أو تعدل أو تغير داخلها؛ فقد يكشف التجريب عن وجود خلل ما في النظرية، غير أنه لا يعيّن بالذات وبالتحديد أيّة عبارة يكون على العالم أن يعالجها، لكننا عزفنا عن

لقد اتخذ كواين من دعواه هاته منطلقاً لدحض النظرية التَّحْقُيقية، باعتبارها تسعى لإثبات وجود إمكانية لردّ العبارات إلى صورة منطقية، وإلى محتوى تجريبي يطابق تماماً الواقعية المادية؛ فقد اعترض كواين في مقالته: "معتقدا النزعة التجريبية" على كلِّ صنف من أصناف النظرية التَّحْقُيقية، باعتبارها تحاول أن تقدّم معنى للقضايا الشخصية Individual sentences.

نقض الخلفية الفلسفية للنزعة التجريبية

ينبغي أن نقول، الآن كلمة عن الدعوى الأساسية في فلسفة العلم عند كواين، ألا وهي "دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية"، فنقول، إن النظرية العلمية الفيزيائية لا تكون محدّدة بكلّ الملاحظات الممكنة، فكما أن كلمة 'كلب' لا تنبج، كذلك، لا يختزل كتاب الفيزياء الطبيعة؛ ولهذا نجد أن النزعة التحقيقية التي نادى بها حلقة فيينا قد فشلت في إثبات المعيار التَّحْقُيق للمعنى؛ فحتى لو اعترفنا بما قال به بيرس C.S.Pearce، حين اعتبر أن معنى عبارة ما إنما يعود إلى الكيفية التي يشهد عليه صدقها، لا يقول كواين بهذا المنظور، ولا يرى أيّ دليل يقوم على صحّة النظرية التحقيقية للمعنى.

فلو أخذنا عبارة ما نحو "يتوفر الإلكترون على شحنة"، فإن هذه العبارة لا تتكون فقط من صورة منطقية ومحتوى تجريبي، بل إنها تكون مسندة بخلفية نظرية، بل إن معناها لا يعطى إلا من خلال هذه الخلفية، فلا معنى لهذه العبارة إلا فيمنطق ونطاق شمولية النظرية، ولهذا السبب دافع كواين على النظرية الشمولية للتحقق، أو قل التحقق الشمولي Holistic verification theory.

هناك تداخل ملحوظ بين "دعوى امتناع تحديد النظرية العلمية" و"دعوى امتناع تحدد الترجمة"، يمكن أن نستشفه من العبارة التالية بلسان كواين صاغها على النحو التالي: "اعتنقت حلقة فيينا النظرية التحقيقية للمعنى غير أنها لم تأخذها مأخذ الجدّ، فلو اعترفنا مع بيرس بكون معنى العبارة يعود إلى ما يمكن اعتباره شاهداً على صدقها، ولو اعترفنا مع ديويهم Duhem بكون العبارات النظرية تحصل على بدايتها لا باعتبارها عبارات مُفردة (أو معزولة) بل باعتبارها مجموعات واسعة داخل النظرية، فإن امتناع تحدّد ترجمة عبارات من هذه النظرية سيكون نتيجة طبيعية"²².

لقد انتقد كواين بشدّة، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل، مفهوم المعنى والترادف المعرفي بعد أن أبطل مفهوم التحليلية، فجاء رفضه للنظرية التحقيقية للمعنى كنتيجة طبيعية، غير أن كواين صان نزعته التي يمكن أن ننعته بـ: مابعد التجريبية من الوقوع في نزعة لا تجريبية، وذلك حين ركز على مبدأ "شمولية التحقق" التي بينا أنه

ذلك فأبينا على "امتناع تحديد النظرية العلمية" كمقابل لـ: Under-determination of scientific theory لكونها أبلغ دلاليًا على تبليغ فحوى الدعوى.

²²- Harman , gilbert ; << Meaning and theory >> in Robert W.Shahan and chris ; Swoyer ; op .cit. p.5

بلورها انطلاقاً من فلسفة العلم عند "ديوهيم"، ومن تصور براغماتي للمعنى لدى بيرس، ويذكر أن نظرية التحقق ظلت أساساً مكيّناً من الأسس والأركان التي قامت عليها النزعة التجريبية.

تقضي النزعة التجريبية الأخذ بالنظرية التحقّيقية للمعنى بأن معنى القضية التجريبية، بخلاف القضية التحليلية، إنما يكمن في الطريقة التي نثبت أو ننفي بواسطتها، تجريبياً، هذه القضية²³، وانطلاقاً من هذا التحديد اعتبرت النظرية التحقّيقية للمعنى أن قضيتين، كيفما كانتا، تكونان مترادفتين فقط إذا كانتا تشابهت الطريقة التي نثبت أو ننفي بواسطتها، تجريبياً، هاتين القضيتين.

ولهذا ستقول النظرية التحقّيقية بوجود معنى تجريبي وترادف معرفي-Cognitive synonymy، فلو تغاضينا، حسب كواين، عن أن نتخذ المعنى كذات مجردة، ولو تلافينا تعريف الترادف أو تكافؤ المعنى، فسنلغي أن النظرية التحقّيقية المنطقية تردّ القضية إلى مكونين سبق أن ألمحنا إليهما، وهما:

(أ) المكون المنطقي أو الصورة المنطقية.

(ب) المكون التجريبي أو المحتوى التجريبي.

وعلى هذا الأساس، يحصل التفريق بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية، ومن ثمة يحصل الفصل في اللغة بين الصورة المنطقية والمحتوى أو المضمون التجريبي، وهي الدعوى التي أبطلها كواين، حين بين امتناع الفصل بين التحليل والتركيب كما.

لقد دحض كواين المعتقدين التاليين:

(1) المعتقد التجريبي الأول، ويتلخص في وجود فرق أساسي بين الحقائق التحليلية والحقائق التركيبية؛ حيث توجد معانٍ مستقلة عن الوقائع المادية وأخرى متصلة بها.

(2) المعتقد التجريبي الثاني، ويقضي بنزعة الردّ التي تفيد اعتقاد التجريبيين في كون كل قضية تكافئ بنية منطقية تتضمن حدوداً تحيل على التجربة المباشرة.

تكشف دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية عن خطأ هذين المعتقدين. ذلك أن التفرقة لا تدلّنا، مثلاً، على القضية التي ينبغي أن نفحصها في حالة عجز نظرية فيزيائية ما عن تفسير واقعة معينة، فحينئذ لا نجد أن القضايا التي صاغتها النظرية تقابل الوقائع الواحد بالواحد، بل نجد أن كل قضية لا تفهم إلا انطلاقاً من النظرية برمتها؛ أي حين نأخذها في شموليتها.

²³- Quine (1953) <<two dogmas of empiricism>> in FLPW. Op. cit. p.37.

يتبنى كواين النظرية الشمولية للتحقق انطلاقاً من دعوى الشمولية holism، ومن دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية، ومقتضى هذه النظرية أنه إذا كان لنظريتين ما نفس المحتوى أو المضمون الاختباري، فإنهما تكونان متكافئتين تكافؤاً تجريبياً؛ أي أن محتوى صيغ القضايا المتضمنة في كلّ نظرية على حده يكون متماثلاً، فإذا ثبت لنا ذلك حكمنا بكونهما متكافئتين تجريبياً، غير أننا نقع في امتناع التحدد، لأن النظريتين قد تطابقان التجربة دون أن تكونا متكافئتين. هناك، إذن، ضربان من العلاقات القائمة بين الملاحظات والنظريات:

(أ) ضرب تكون فيه الملاحظات بمثابة شواهد للنظرية.

(ب) ضرب تكون فيه الملاحظات مطابقة للنظرية.

وبناء على هذين الضربين، هناك مدلولان للتكافؤ التجريبي - empirical equivalence يصوغهما هارمان كما يلي:

1. تكون نا1 و نا2 نظريتين متكافئتين تكافؤاً تجريبياً فقط، إذا كانتا تقومان معا على الشاهد نفسه (أي على الملاحظة نفسها).

2. تكون نا1 و نا2 نظريتين متكافئتين فقط، إذا كانتا تطابقان معا الشاهد نفسه (أي الملاحظة نفسها).²⁴

ومع ذلك، فقد بين كواين، رغم اعتراضه على هذا التقسيم، أننا لو أخذنا صيغة نظرية معينة، واخترنا حدّين من حدودها كأن نأخذ مفهوم "إلكترون" و "جزيء" (وهما مفهومان لا يظهران حسب كواين في عبارات عيانية (أي غير مجهرية) إنهما مفهومان نظريّان لا يفهمان إلا في نطاق ومنطق خلفية نظرية معينة)، فإننا حين نغيّر صيغتنا النظرية، ونستبعد هذين المفهومين، فإن الصيغة النظرية الجديدة ستكون غير مطابقة منطقياً للصيغة القديمة وبالتالي فإننا سنميّز، حينئذ، بين مدى مطابقة النظريتين للواقع (أي تطابق نا1 و نا2) وبين مدى حصول التكافؤ المنطقي بينهما.

ولو قارنا هذه الحالة بما جاء في دعوى امتناع تحدد الترجمة، فسنجد أن الكراسات التي يقدمها المترجمون قد تطابق عبارات القوم المنقول إلينا كلامهم دون أن تكون هذه الكراسات متطابقة فيما بينها، وكذلك هو شأن النظريات العلمية؛ وهذا يقوم دليلاً على تعاضد أطروحتي كواين، أعني: أطروحة "امتناع تحدد النظرية العلمية" وأطروحة "امتناع تحديد الترجمة".

²⁴- Harman.G <meaning and theory>. op .cit.p.10.

عندما نتناول نفس الوقائع العلمية أو الترجيمية، فإننا نتناول بالفعل نفس الوقائع التي نقاربها، ومع ذلك، لا تكون صيغ قضاياها متطابقة فيما بينها، إنها دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية، وقد التحمت بدعوى امتناع تحدد الترجمة.

فماذا سيتبقى، إذن، من مهمة الدلائل إذا ما تخلت عن تحليل النظرية العلمية وتمحيص محتواها التجريبي وصورتها تحليلاً منطقياً؟ الجواب يكمن، عند كواين في الشمولية الدلالية التي ترأب صدع البرنامج الوضعي المنطقي الذي أوكل لنفسه مهمة ممتنعة، ألا وهي التحليل المنطقي للغة العلم.

الشمولية الدلالية ونظرية التحقق

تستجيب الشمولية الدلالية لمهمة أعمق من التحليل الذي اعتمده النزعة التجريبية المنطقية، فقد أبطلت التفريق بين التحليل و التركيب، كما أبطلت نزعة الرد reductionism أو النزعة الاختزالية، وهكذا بينت أن الشمولية تكمن في البحث عن نظرية مطابقة للمعنى تلتزم بكل العبارات ذات الصورة، س تعني ص لكنها لا تأخذها معزولة، بل تتناولها في تعالقاتها ببعض داخل الإطار النظري أو الخلفية النظرية.

تحدّد النظرية الشمولية للتحقق، إذن، في الاعتبار الذي يتحقق فيه معنى عبارة ما داخل نظرية ما، انطلاقاً من كل ما تلتزم به هذه النظرية انطولوجياً من قضايا قد لا تتطابق فيما بينها، في الوقت الذي تقارب فيه نفس الوقائع التجريبية؛ وعلى هذا الأساس، تكون النظرية الشمولية للتحقق قد أفلحت في اجتناب مفاهيم المواضعة concepts of convention، والقاعدة اللغوية، والممارسة اللغوية، وما إليها من مفاهيم²⁵ لتلتحم بامتناع التحدّد.

تلتبس دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية بامتناع تحدد الترجمة، وقد علق "كواين" عن هذا الالتباس قائلاً: "من الناحية المعرفية، يحصل التباس بين دعوى امتناع تحدد الترجمة ودعوى امتناع تحدّد النظرية الفيزيائية: فمن وجهة نظر أنطولوجية، نجد أن الدعويين تختلفان بالنظر إلى نزعتي الفيزيائية، ونفوري من الواقع الموضوعي؛ و يظهر ذلك، ببساطة، في كون كراسة الترجمة لا تكترث بكل الأوضاع و المواقف و الحثيات الجزئية للعالم، و لا يسمح بعدم الاكتراث هذا على النحو الذي يسمح بذلك في مجال الرياضيات؛ ويرجع ذلك إلى كون اللغة تنتمي، بخلاف الرياضيات، إلى عالم طبيعي بوصفها سلوكاً لنوع من الثدييات²⁶.

²⁵- D.Davidson, (1984), *Inquiries into truth and Interpretation*. Clarendon press .Oxford U.Press .p.171.

²⁶- تصريح خص به "كواين" بول غوشيه" انظر:

P.Gochet,(1978), *Quine en perspective*, op. cit.

لقد بحثت فاصالو أطروحة كواين ساعية إلى الكشف عن مظاهر عدم الاتساق الذي ظننت أنه يطبعها، وذلك من خلال فصول كتابها الذي عالجت فيه ابستمولوجيا كواين 27 بقصد إيجاد مسوغات استبدال دعواه، واقتراح دعوى مضادة؛ فبعد أن استعرضت في الفصل الأول مقالات حول الابستمولوجيا تطرقت، في الفصل الثاني، لكواين وللنزعة الشكية مبرزة عجز كواين عن مجاوزة الشك من أجل تأسيس المعرفة.

ونحن لا نشاطرهما ما ذهبت إليه من قولها بأن كواين ما ينفك، وهو ينتقد النزعة الشكية، "يقودنا إليها"، وفيما يلي، نبسط السببين التاليين الموجبين لاعتراضنا:

أولهما: أن دعوى كواين ليست تصدر عن نزعة شكيّة، ولا هي تنتهي إلى نزعة شكيّة، ذلك أن القول بامتناع التحدد لا يقود إلى الشك، ثم إن كواين لم يقل بامتناع مطلق للتحقق، بل إنه اعتبر أن التحقق إنما يتخذ طابعا شموليا، وبالتالي فإنه يقول بإمكانية المعرفة الشمولية 28 وذلك ما انتهت إليه مقالته "عقيدتنا النزعة التجريبية" كما بيناه في موضعه؛ وإذا كان كواين قد راجع كثيرا من الأولويات التي سلمت بها نظرية المعرفة التقليدية، وخلخل ثوابتها، فإنه لم ينته، مع ذلك، إلى نزعة شكية؛ فالقول بامتناع التحدد في النظرية العلمية، وفي الترجمة، والقول بنسبية الانطولوجيا عن الدعوى الدلالية الأساسية، بخصوص المعنى والإحالة، القاضية "بامتناع تحديد المعنى"، و"بامتناع تمحيص الإحالة *Inscrutability of reference*" كلها تفيد ضرورة استبدال ما يقتضيه كواين من جعل الابستمولوجيا مستوعبة داخل العلم الطبيعي بالنظرية التقليدية للمعرفة، فقد بيّن أن لجهازنا العصبي صلة بالعالم الواقعي المحيط بنا، وهذا الجهاز هو الذي يمكننا من تحصيل المعرفة بعيدا عن كلّ فلسفة أولى مزعومة.

وثانيهما: أن كواين، وهو يسعى إلى استبدال الابستمولوجيا التقليدية بالنفسانيات (باعتبارها فصلا من العلم الطبيعي) يكون قد تخلص من الميتافيزيقا النظرية كما يكون قد خرّق، في الوقت نفسه، الدعوى الوضعية القاضية بفصل الميتافيزيقا عن العلم الطبيعي؛ فهو لا يعتبر، كما رأينا، الفلسفة مجرد نشاط فكري، أو خطاب نظري حول العلم، بل إن الفلسفة هي العلم ذاته وهو ينطبق على ذاته.

سيعتمد كواين، من أجل إبطال دعوى فصل الفلسفة عن العلم، على علوم المعرفة Cognitive Sciences، أو باصطلاحنا، على المعرفيات، وعلى البحوث الجارية في الأعصاب neuroscience، وغيرها من المجالات التي اعتمدها كواين لكي ينتصر للنفسانيات التي سيجعل منها فصلا من فصول العلم الطبيعي، وبالتالي، ستتخذ النفسانيات باعتبارها علما وصفيا يصف العلاقات السببية القائمة بين المدخلات

²⁷- Vassallo, 1997. *La naturalizzazione dell epistemologia*, revised by Mario Trincheres. p.37 citédans **History and Philosophy of logistic**.

ويؤسفنا أننا اعتمدنا على مراجعة الكتاب غير المترجم، إلى حد الآن، ونأمل أن نتمكن من إجراء مناقشة مستفيضة ومباشرة لانتقادات فاصالو.

²⁸- Holistic theory of Knowledge.

الحسية²⁹ وبين معتقداتنا؛ حيث لا تقود إلى تقدير يفيد أن معتقداتنا بخصوص هذه العلاقات السببية صحيحة؛ وعلى هذا الأساس تتبدد كل دعوى ترمي ابستمولوجيا كواين بوقوعها في النزعة الشكوية: إن المعرفة طبيعانية، والحقيقة شمولية.

والآن، ننتقل إلى اعتراض آخر أوردته فاصالو في مواجهة فاصالو حجة كواين بخصوص امتناع تحدد النظرية العلمية، وهي محجوجة في هذا الاعتراض أيضا؛ فقد يتهاى لنا أن كواين حين يدعى أن "الشاهد" في نظرية ما هو المعيار الذي يفيد، بمجرد أن نتوفر عليه، أننا قد توفرننا، في الوقت نفسه، على مسوغات معرفية جيّدة تجعلنا نعتقد في صدق هذه النظرية³⁰، يسقط في النزعة الشكوية، عندما يدعي أننا نجهل كيف يرتبط هذا الشاهد بالنظرية، لكننا ما إن نستوعب جيدا دعواه المتعلقة بامتناع تحدد النظرية التي تبيّن أن القضايا التي ترد في النظرية لا تقابل الوقائع مقابلة تطابق، فهي لا تقابل الواحد الواحد معطيات التجربة، حتى يحصل في أذهاننا أنه لم يسقط في نزعة الشك خصوصا، وهو لم يبطل تماما التحقق، بل قال بشمولية التحقق، ولم ينته إلى تصور غير طبيعي للمعرفة.

طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة

إن شمولية الحقيقة وطبيعانية المعرفة ليقومان دليلا على كون كواين قد خرج عن الإطار التقليدي لنظرية المعرفة، وأسند للحقيقة مدلولاً نسبياً خاصاً، يتمثل في الالتزام الانطولوجي للنظرية العلمية؛ إننا نعرف العالم الخارجي من خلال النظرية، والنظرية تحمل شحنة انطولوجية وشحنة لغوية، غير أننا لا نملك معياراً يمكن أن نفصل فيه لغتنا عن الوقائع التي نتكلم عنها في النظرية العلمية، سوى ما تلتزم به نظريتنا انطولوجيا.

هب أن كواين سمح لنا بفحص ما إذا كنا نعرف العالم الخارجي، فألى أي حد، تتساءل فاصالو، تختلف ابستمولوجيته عن ابستمولوجيا ديكارت؟ تجيب فاصالو بأن ديكارت، وهو يسعى إلى تبرير معتقداتنا في صورة قضايا تجريبية لا ينتهي إلى هذه القضايا التجريبية ذاتها، بينما كواين يقدم تبريراً، وهو يجتنب تأسيس المعرفة لا على معطيات الحسّ، ولا على الأفكار البسيطة ولا المدركات... إنه يقع في التسلسل عندما "يستعمل العلم من أجل تبرير العلم".³¹

²⁹- Sensory inputs.

³⁰- Vassallo,1997. **La naturalizzazione dell epistemologia**, revised by Mario Trincheres.p.37 citédans **History and Philosophy of logistic** .Op .cit .p164

³¹- *ibidem*

لقد طلب منا كواين، في مقالته "الابستيمولوجيا الطبيعية، أن نكف عن أن "نحلم باستنباط العلم من الملاحظة"³²، فهل يقود انعدام وجود معيار نعاير به معرفتنا بالعالم الخارجي إلى نزعة شكّية خالصة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نبرر، إذن، معتقداتنا؟ وكيف نميّز معتقداتنا عن المعرفة؟

تنتهي فاصالو إلى إقحام دعوى كواين في النزعة الشكّية لتعتنق بدورها منظورا قضويا هو أقرب إلى النزعة الاسمية بدعوى أن ديكارت قد برّر معتقداتنا في القضايا التجريبية دون أن يتخذها أساسا للمعرفة، فإذا كان الأمر كذلك، فإنها قد وقعت في الخلف بينما تكون الابستيمولوجيا الطبيعية قد تجنّبت أن تتناول المعرفة خارج دائرة المعرفة، وذلك بمقتضى ما هجر كواين القول به؛ أي: ادعاء وجود "فلسفة أولى"، وأفلنت، بالتالي، من دائرة الشكّ، وهي تفرن المعرفة بالعلم الطبيعي الذي يحتوي من بين فروع النفسانيات باعتبارها، كما قلنا، علما وصفيا يصف العلاقات السببية القائمة بين المدخلات الحسيّة.

لقد محصت فاصالو، من خلال معالجة موقف كواين من التحقق وتبرير النظرية، وساءلت دعواه بخصوص معيارية المعرفة. Normativity of Knowledge التي زعمت أن كواين قد أتلف معالمها لتنتهي إلى إبراز عدم اتساق الدعوى ووقوعها في الشكّية؛ وقد خلصنا إلى أن حجّجها مردودة لكونها استندت على الشكّ الديكارتي الذي ينطلق بدوره من فلسفة أولى وذلك ما يرفض كواين، كما مرّ بنا، أن يؤسّس عليه أية معرفة كائنة ما كانت.

وخالصة القول، فإن دعوى الإبستيمولوجيا الطبيعية ترتبط بمنطلقات كواين الطبيعية التي تجعل العلم الطبيعي يستوعبُ نظرية المعرفة، وبهذا ينتصر كواين لدعواه القاضية بعدم فصل العلم الطبيعي عن الميتافيزيقا النظرية، فهو يعترف بالعالم الخارجي، تماما كما نجد هذا الاعتراف لدى راسل³³، غير أنه يعاضد دعواه بامتناع التحدد الذي يكشف عنه العلم الطبيعي ذاته.

تخالف الابستيمولوجيا الكواينية التقليد الفلسفي العقلاني، وعلى الخصوص التقليد الديكارتي، كما تخالف التقليد التجريبي الممتدّ من ج. لوك إلى برتراند رسل وإلى الوضعيين التجريبيين المناطقة، إلى درجة يمكن أن نقول معها إن كواين يردّ إبستيمولوجيته إلى شعبة من شعب النفسانيات التجريبية Empirical psychology، وإلى اللسانيات، باعتبار أن موضوعات المعرفة ليست أفكارا فطرية أو معطيات حسيّة.

³²- Quine .1969 <<Epistemology naturalised>> in *Ontological Relativity and Other Essays* .op.cit.p.76

³³- Alten and unwin: "B.Russell.1980.An Inquiry Into Meaning and Truth" في رد فعلنا عن مثير حسي، يكون هناك عنصران يمكن أن نميز بينهما نظريا يرجع الأول إلى المثير، والثاني إلى ما يصاحب هذا المثير compresents مما ينشأ من العادة. فالأساس لن يكون خالصا و الحواس الأخرى ستأثر بالمثير، بالنظر إلى قانون العادة، فعندما نشاهد قطة نتوقع أن تموء (...). فإذا ما نبحت فستكون دهشتنا بالغة؛ ولهذا الأمر علاقة باعتقادنا بأننا نشاهد موضوعات وليس ما لدينا مجرد إحساسات بصرية"

انظر بحثنا لنيل الاجازة، فوج 1983/1984

إبراهيم مشروح، إشكالية الصدق و المعنى عند برتراند رسل، (من خلال دراسة كتابه: بحث في المعنى والصدق) كلية الآداب- الرباط، مرقون، ص25 وما بعدها.

إن إبيستيمولوجيا كواين طبيعانية لكونها لا تجعل المعرفة قائمة على الأفكار الفطرية ولا بوجود المعقولات، فهي تقوم على المعطى التجريبي الذي نستوعبه داخل اللغة، ولكن اللغة لا تستوعب الواقع نظرا لامتناع التحدد؛ وهي شمولية لأن الحقيقة ليست تكمن في التحقق الجزئي للقضايا، وذلك لأن العالم حين يكتشف أن هناك خلا ما في نظريته لا يستطيع أن يعين، بالتحديد، القضية التي ينبغي تفويمها، وإنما يكون عليه أن يراجع القضايا في نطاق ومنطق النظرية، ومن هنا، فالحقيقة شمولية.

لم يعط كواين للوقائع الحسية التي قال بها راسل كيانا ماديا خارج الإطار النظري، فهي لا تحظى بكيانها إلا في إطار الخلفية النظرية؛ وهذا ما يسوغ دعوى النسبية الانطولوجية *ontological relativity* التي تفيد عدم تحدد العلاقة القائمة بين الموضوعات الطبيعية والجهاز العصبي³⁴، فيما أن الوجود هو القيمة التي نسندها للمتغير، فإن هذه القيمة لا تتحدد إلا بما تلتزم به النظرية أنطولوجيا.

أليس في هذا الموقف الفلسفي الكوايني مجاوزة للتجريبية المنطقية دون أن تفضي هذه المجاوزة إلى الخروج عن ثابت من ثوابتها ألا وهو النزعة العلمية التي تمسك بها الوضعيون المناطقة، ومعاداة الفلسفة النظرية أو الميتافيزيقا؟ نجيب بالإيجاب؛ فالنزعة العلمية ماتزال تسطو على فكر كواين وتهيمن على رؤيته؛ ومعاداة الميتافيزيقا ما طفقت تتجلى في مقارباته، متمثلة في نبذ كل دعوى تزعم وجود فلسفة أولى سابقة عن العلم؛ ولهذا ندعي من غير أن نعدم دليلا أن كواين يمثل ما بعد النزعة التجريبية أو النزعة التجريبية المعتدلة. فما هي مظاهر التجريبية المعتدلة أو المعدلة؟

ينبغي، لكي نستجلي هذه المظاهر أن نتناول مفهوما رئيسا لعب دورا كبيرا في المنظور الكوايني، ويتعلق الأمر بمفهوم "الصورة المفهومية" *Conceptual scheme*، والمقصود بالصورة المفهومية أو الإطار المفاهيمي مجموعة الطرائق التي تنتظم بواسطتها التجربة، فهي عبارة عن أنساق من المقولات التي تحبك الوقائع الحسية، وتنظمها في صور ذهنية، إنها عبارة عن أطر تضم النظريات وأوجه النظر التي تقارب الواقع.

يقيم ديفيدسن Davidson ترادفا بين اللغة والنظرية، معتبرا أن الصورة المفهومية هي التي تجسد الطرق التي تنتظم بواسطتها التجربة، وهي التي تعطي للتجربة الصورة التي تمثل بواسطتها الوقائع الحسية؛ ولما كانت الصورة المفهومية عبارة عن إطار أو نظرية أو لغة، فإنه لا وجود، في نهاية المطاف، لطريقة محددة ننقل فيها صورة مفهومية إلى صورة مفهومية أخرى، ويعود ذلك إلى امتناع تحدد الصدق والمعنى والاعتقاد.

.Truth, Meaning and belief

³⁴ - جاء في فصل عقدة رجونولسن R.J.nelson (1992) تحت عنوان " الفلسفة جزء لا يتجزأ من العلم " أن كواين لا يدعي وجود فلسفة خارج العلم سابقة أكانت أم متاخرة، بل أن الفلسفة لا تخرج عن نطاق العلم الطبيعي: R.J.Nelson, 1992, Naming and

Refernce .Routledge ;Edited by Ted Honderich.P.123.

"إن الواقع نفسه إنما يكون تابعا للصورة المفهومية، وذلك لأن ما قد يعتبر واقعا في نسق معين قد لا يعتبر كذلك في نسق آخر".³⁵

قد نأخذ، مع كواين، بوجود كثرة في الصور المفهومية أو في الأطر النظرية، مما يجعل النظريات العلمية تنطبع بطابع النسبية، وهذا ما يؤكد ما انطلق منه عنوان هذا المقال بخصوص طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة عند كواين؛ ويبقى علينا أن نتفحص ما إذا كان من الممكن أن ننتهي إلى لحظة فكرية تتحقق فيها صورة المفهومية واحدة ووحيدة؛ أي أن نتوصل إلى وحدة للصورة المفهومية، وبالتالي إلى وجود صورة مفهومية واحدة؛ وهي مسألة تظل - مع ذلك - معلقة.

ورغم أن مسألة الوحدة والكثرة قد شغلت الفلاسفة منذ أمد بعيد، ولم تحسم بأي وجه من الأوجه، فقد استمر الجدل بشأنها إلى يومنا هذا؛ حيث نجد أن دعاة الأنساق المتنافسة قد تبنا مذهب الكثرة أمام إمكانية تعددية الأنساق المنطقية التي أتاحتها النزعة الأكسيومية، حتى جعل البعض من هذا المظهر حقيقة دامغة تؤكد وجوب تبني مبدأ التسامح.³⁶

وقد أفصح كارناب عن هذا المبدأ قائلا: "في المنطق، لا مكان للأخلاقيات؛ فكل واحد يكون حرا في إنشاء منطقته الخاص؛ أي صورته الخاصة للغة كما يحلو له، وكل ما يطلب منه هو أنه إذا كان يرغب في مناقشة هذا المنطق، فسيكون عليه أن يصرح بوضوح بمنهجه، ويبسط قواعد التركيب بدل أن يدلي بحجج فلسفية".³⁷

ما بعد النزعة التجريبية

يتبنى الموقف الآخذ بمذهب الكثرة وجود نسبية مطلقة في مقارنة الواقع، سواء من خلال الصور المفهومية أو الأطر الذهنية أو الخلفيات النظرية، خصوصا منه مذهب الكثرة الشمولية³⁸؛ وقد بين "ماريو بونج" في مقالة افتتاحية تحت عنوان "فضيحة الفلسفة"، أن "المفاهيم الأساسية في علم الدلالة هي، بالطبع مفاهيم المعنى ومفاهيم الصدق، ولسوء الحظ لسنا نتوفر، على نظرية لا للمعنى ولا للصدق تكون قادرة على معالجة مفهوم المعنى الواقعي أو مضمون الفرضية أو النظرية سواء في العلم الطبيعي أو في العلم الاجتماعي. ويسري ذلك

³⁵ - D. Davidson, (1984), **Inquiries into truth and Interpretation**; op; cit,p,183.

لم ينكر كارناب نفسه هذه الحقيقة فدعا إلى ما يصطلح عليه بمبدأ التسامح حيث اعتبر أن كل واحد يكون حرا في بناء نسقه المنطقي وكل ما يطلب منه هو وجوب التصريح بمسلماته؛ وقد صاغ كارناب مبدأ التسامح في الفقرة 17 من كتابه **وحدة العلم** حيث جاء ما يلي: "ليس من شأننا أن نقيم الموانع، وإنما يكمن شأننا في التوصل إلى المواضع"³⁶

³⁶ - Rudolf Carnap, 1934-1995, **The Unity of Science**. Translated by Max Black, p.51.

³⁷ - R. Carnap, **The logical Syntax of Language**, London: Routledge and Kegan Paul 1937. p. 52.

راجع:

إبراهيم مشروح، مكانة نظرية الدلالة وفلسفة المنطق في فكر كواين أطروحة دكتوراه، مرقونة بكلية الآداب-جامعة محمد الخامس -الرباط 2001 معدة للطبع تحت عنوان كواين: الفلسفة التحليلية وما بعد النزعة التجريبية.

على مفهوم الحقيقة الموضوعية-الواقعية. فالنظرية الوحيدة في علم الدلالة هي نظرية النماذج، وهي تعجز بدورها أيضا عن ضبط مفاهيم الإحالة على الوقائع أو المضامين الواقعية التجريبية...³⁹؛ ومن هنا، تظل الكثرة في النماذج وفي الأنساق جاثمة على المعرفة، وإن كانت هذه المعرفة تمتح من التجربة الواحدة من جهة كونها طبيعية، وتطلب ملامسة الحقيقة التي تظل، هي الأخرى، واحدة من جهة كونها شمولية.

لقد قادت هذه الحقيقة إلى دعوى نسبية الصورة المفهومية، ولعل المشكلات الدلالية هي التي حدثت بكواين، كما رأينا، إلى مراجعة التصور الوضعي المنطقي من خلال نقد معتقدي النزعة التجريبية التي جسدت "كارناب" أكمل صورها؛ وقد اعتبر "ديفيدسن"، عن حق، أن دعوى النسبية المفهومية هي روح وجوهر التجربة المعتمدة عند أستاذه كواين.

ويذهب "رورتي" إلى حدّ القول إن التجريبية المعتدلة هي ما يمكن أن يعبر عن حادثة النزعة التجريبية، أو بتعبيرنا، "ما بعد النزعة التجريبية"؛ لقد ألحت الفلاسفة التحليلية على مسألة المعنى، غير أنه بعد أن أيقن علماء وفلاسفة القرن الماضي بالحقائق التي توصل إليها العلم، وبعد أن وثقوا بأنها تطابق الواقع حتى زعموا أنها حتمية، صار الأمر يقضي بخلاف ذلك، فمع الأزمات التي شهدتها الرياضيات (أزمة الأسس) والفيزياء (انهيار مفهوم الحتمية)...⁴⁰ وكلها أمور غدت مشهورة، لم يعد بإمكان ادعاء النظرية، أنها تصف بحق الواقع وتطابقه.

إن النظريات العلمية مجرد صور مفهومية أو أطر لغوية language frameworks تفرغ فيها مقاربات متنوعة للوقائع العلمية محددة داخل شبكة من العلاقات الرياضية المجردة؛ فالوقائع المادية ليست هي الوقائع التي يتم صوغها داخل النظرية، ولهذا السبب، اقتنع العلماء بضرورة التخلي عن التصور العلمي للكون الذي تمّ صوغه في القرن التاسع عشر؛ لقد كان نيلز بوهر Bohr N ينظر في موضوع فيزيائي واحد، وكان منشغلا بكيفية تحديد الشروط التي تنطبق فيها مفاهيم العلم الطبيعي، وكان يتساءل عما إذا كانت الأوصاف أو الرسوم التقليدية، ما تزال صالحة للتعبير عن المعنى الجديد، وهكذا صاغ مبدأ وجود الصفات أو الخصائص؛ حيث يؤثر قياس خاصية ما في قياس الأخرى وفق تصور تكاملي، ولعل هذا يتفق وشمولية التحقق نظرا لامتناع تمحيص الإحالة.

³⁹- BUNGE, Mario, (1974) <<The scandal of philosophy>>. Discours d'ouverture du colloque de Rixensart du 30 Aout au 3 Septembre sous le thème de :la Sémantique dans les Sciences ,pp,11.12.

⁴⁰- KUHN;Thomas;1962, **The Structure of Scientific Revolutions**, University of Chicago press Chicago

لقد بيّن كواين أن الإحالة أمر نسبي، وقد كشف ديفيدسن عن هذه الدعوى؛ حيث قال: "يظهر أن بعض ما يفهم من النسبية المفهومية Conceptual relativism قد أوحى إلى كواين بأن يدعي أن الإحالة والانطولوجيا والصدق يجب أن تغدو تابعة للخلفية النظرية أو للغة".⁴¹

ولهذا كان توماس كيون محققاً، حين اعتبر أن العلماء يشتغلون بطرائق متباينة داخل نماذج أو في عوالم مختلفة، فلا أساس من الصّحة للدعوى التي تأخذ بمبدأ ثبات المعنى Meaning invariance، فاللغة أو المعنى – إذا أجزنا لأنفسنا أننا نقيم بينهما، في إطار النسبية المفهومية، ترادفاً – عبارة عن كل منتظم لا وجود لإمكانية الفصل داخله بين عبارات تحليلية أخرى تركيبية؛ ويعود ذلك إلى كون النظرية عبارة عن جسم واحد يقابل الواقع؛ ومن هنا، فإن معنى كلمة أو عبارة داخل نظرية ما لا يتحدد خارج النظرية ولا يصدق خارجها يقول بول فايربانند Feyerabend: "إن حجتي ضد دعوى ثبات المعنى حجة بسيطة وواضحة فهي تنطلق من كون المبادئ المتضمنة في تحديد معاني النظريات أو وجهات النظر القديمة تكون غير متسقة مع المبادئ الجديدة".⁴²

لقد تخلخت قناعات العلماء وارتجت مواقفهم أمام هذه التغيرات، وصاروا أقل تشبثاً بمبدأ الموضوعية؛ والشاهد على ذلك، أن نتائج البحوث قد بينت في فلسفة العلم، مع توماس كيون، مثلاً، أن الانتقال من العلم العادي إلى العلم الجديد، يتم من خلال مجاوزة "نموذج"⁴³ علمي عادي إلى نموذج جديد، وتكشف هذه النتيجة، أن النماذج تكون بمثابة أطر مفهومية أو عقلية.

كما اقترب العلماء مما يمكن أن ننعته بمبدأ الحياد المعرفي cognitive neutrality الذي يفيد أن النسبية هي الطابع العام الذي ينبغي أن نتبناه بعد أن نهجر مفهوم الموضوعية الذي ظل يشكل عمدة التصورات العلمية في القرن الماضي.

ها هي ذي، إذن، التقريرات التي ظلت خفية، وغالبا ما تم التعبير عنها بطرق خجولة تبرز إلى السطح نحو ما قاله "هايزنبرغ" بخصوص الجزئيات الأولية معتبرا إياها مجرد صيغ رياضية أكثر منها وقائع مادية، ولعل هذا يذكرنا بقولة هيرتز الشهيرة أن نظرية (ماكسويل) هي معادلات ماكسويل.⁴⁴

⁴¹- D.Divadson, (1984), *Inquiries into....op .cit.p.233*.

⁴²- Feyerabend, 19, <<Explanation, Reduction and Empiricism>> in Scientific Explantation, space anstime; innesota Sudies in the philosophy of science, University of minnesota press, Minneapolis.

⁴³- paradigme.

⁴⁴- Agazzi, Evamdo, (1974) << les critères sémantique pour la constitution de l'objet scientifique>> in *la semantique dans les sciences*, colloque de Rixensart, pp,14-15.

يمكن أن نستنتج أن دلالة النظرية قد انزاحت عن كونها تمثل العلاقات الموضوعية داخل مجالها لكي تمثلها في علاقات صورية تقوم، بالدرجة الأولى، على اتساق النظرية، وبالتالي على القيم الصدقية التي تسندها النظرية لقضاياها وتلتزم بها أنطولوجيا.

تفيد دعوى امتناع تحدد النظرية العلمية أن من بين نتائجها رفض البرنامج الذي رسمته الوضعية المنطقية المتمثلة في "كارناب" الذي زعم أنه بالإمكان وضع إطار لساني للنظرية يكون قادرا على تنسيقها ومقتدرا على التمييز بين المحتوى التجريبي والصورة المنطقية المحكومة بقواعد دلالية لقضاياها.

لقد اعتبر "كواين" أن برنامج "كارناب" قد فشل بعد ما أثبتته الدعوى الشمولية التي تقضي بأن عبارة أو قضية ما لا تواجه الواقع معزولة عن إطارها النظري، ولا تقابل الواقعة المادية الواحد بالواحد، لأن: "القضايا المتعلقة بالعالم الخارجي تواجه محكمة التجربة كجسم واحد"⁴⁵ وقد أدرك "كواين" ما وقع فيه "كارناب" من حرج نظري، عندما سعى إلى التوفيق بين شمولية (ديوهيم) وتفريقه هو بين الأسئلة الداخلية والأسئلة الخارجية: "لقد اعترف "كارناب" بأنه لا يستطيع أن يحافظ على معيار مزدوج للأسئلة الأنطولوجية والفرضيات العلمية فقط بالأخذ بالتفريق المطلق بين التحليل والتركيب. ولست في حاجة إلى القول، مرة أخرى، بأنني رافض هذا التفريق"⁴⁶.

يظهر أن النظرية بلغتها وأنطولوجيتها (بفكرانيتها وأنطولوجيتها) تدخل في إطار الصورة المفهومية، فلا وجود لإمكانية فصل المحتوى التجريبي عن الخلفية النظرية لأنطولوجيته فلا ذاتية بدون هوية.

لقد انتهت فلسفة العلم الكواينية إلى نزعة واقعية تأخذ بالتجربة، لكنها تقضي بنسبية النظرية دون التفريط في النزعة الشمولية التي توافق نزعة (كواين) الفيزيائية: "نظرا لكون تجريبي النزعة، فإنني سأظل آخذ بالصورة المفهومية باعتبارها إطارا يصلح بكل تأكيد، للتنبؤ بالتجربة المستقبلية في ضوء التجربة الماضية، أن الموضوعات الفيزيائية تكون محمولة كوساطات مناسبة"⁴⁷.

⁴⁵- Quine; (1953) << Two dogmas of Empiricism>> in From a logical point of view, op ,cit ,p 41.

⁴⁶- Ibid. pp.45-46.

⁴⁷- Ibid. p.44.

خلاصة:

لقد انتهينا إلى الكشف عن نزعة تجريبية معتدلة Empirism Moderate عند كواين، وتتجلى هذه النزعة التجريبية المعتدلة، إذن، في إضفاء طابع النسبية على الإطار أو الصورة المفهومية من قبل هذا الفيلسوف دون أن يضطره ذلك إلى التفريط في نزعته الطبيعية التي تقضي بأن العلم الشامل هو العلم الطبيعي أو الفيزياء، ودون أن ينتهي الأمر إلى نزعة شكية؛ وذلك ما رام هذا المقال بيانه من خلال فحص فلسفة العلم عند كواين بالتركيز على مظهري طبيعانية المعرفة وشمولية الحقيقة بوصفهما معلمين رئيسيين لما بعد النزعة التجريبية.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com